

الناس وإن لم يخص قوماً دون قوم، ولا فرضاً دون نفل، فإذا بنى مسجداً، وأذن فيه للناس، فذلك كالتصريح بأنه وقف، وإن لم يخص زماناً، ولا قوماً، ولا قيّد الصلاة بكونها فرضاً، فلا يحتاج لشيء من ذلك، ويحكم بوقفيته.

### المذهب الشافعي:

قال الشيرازي: ولا يصح الوقف إلا بالقول؛ فإن بنى مسجداً، وصلى فيه، أو أذن للناس في الصلاة فيه لم يصبر وقفاً.

وقال النووي: فلو بنى على هيئة المسجد، أو على غير هيئته، وأذن في الصلاة فيه لم يصبر مسجداً، كذا لو أذن في الدفن في ملكه، لم يصبر مقبرة، سواء صلى في ذلك، ودفن في ذا أم لا؟

### المذهب الحنبلي:

قال ابن قدامة: وظاهر مذهب أحمد أن الوقف يحصل بالفعل مع القرائن الدالة عليه؛ مثل أن يبني مسجداً، ويأذن للناس في الصلاة فيه، أو مقبرة، ويأذن في الدفن فيها، أو سقاية، ويأذن في دخولها، فإنه قال في رواية أبي داود وأبي طالب فيمن أدخل بيتاً في المسجد، وأذن فيه لم يرجع فيه، وكذلك إذا اتخذ المقابر، وأذن للناس، والسقاية، فليس له الرجوع.

والذي يظهر القول بجواز الوقف بالفعل مع القرائن الدالة عليه، لأن العرف جارٍ بذلك، وفيه دلالة على الوقف، فجاز أن يثبت به؛ كالقول وهو جارٍ مجرى من قدم إلى ضيفه طعاماً كان إذناً في أكله، ومن ملأ خابية ماء على الطريق كان تسبيلاً له، ومن نثر على الناس نثاراً كان إذناً في التقاطه، وأبيح أخذه، وكذلك دخول الحمام، واستعمال مائه من غير إذن مباح بدلالة الحال، فكما أن البيع يصح بالمعاطاة من غير لفظ، وكذلك الهبة، والهدية، لدلالة الحال، فكذلك الوقف ههنا.

## المبحث الثاني: مكانة الأوقاف الخيرية في تنمية

### المجتمعات

نعم الله على عباده كثيرة لا تعد ولا تحصى قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ

لَا تُحْصَوْنَ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ [النحل: 18] ومن أجل تلك النعم وأعظمها نعمة الإسلام. قال تعالى: ﴿يُمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ [الحجرات: 17] وتتعدد نعم الله على عباده وتتنوع في جميع الجوانب والأحوال والمجالات، وهذه النعم الجسيمة والآلاء العظيمة والأفضال التي لا تحصى ولا تعد قد عمت وشملت الناس جميعاً في كل ما يحيط بهم في جميع جوانب حياتهم صغيرها وكبيرها، سرها وعلانياتها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها في جميع دقائق الكون.

وإن من نعم الله العظيمة أيضاً على عباده المسلمين، أن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فجاء بشرع حكيم من لدن رب العالمين يصلح به أمر دنياهم وآخرتهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا رَبُّهُمْ يُتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ [الجمعة: 2]، فأكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١﴾ وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾ [آل عمران: 110] فجاء كمال هذا الدين وتامه عاماً وشاملاً ليغطي جميع مناحي الحياة، وجميع الجوانب المادية والمعنوية فيها، وجميع المتطلبات السوية للنفس البشرية في كل حاجاتها، وذلك لعلم الخالق القادر العظيم بجميع دقائق تلك النفس البشرية قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿١﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٢﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٣﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿٤﴾ [الشمس: 7-10] وليغطي في الوقت نفسه حاجة البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وألستهم وجنسياتهم، ولأنه يعلم ما يصلح البشرية وما يفسدها، فأمر بكل ما يصلحها ونهى عن كل ما يفسدها، من خلال منظمة التشريعات الإسلامية السامية التي جاءت لكمال هذا الدين وتامه، فجعلته صالحاً لكل زمان ومكان، شاملاً

لجميع مناحي الحياة، ينظم أمورها، ويضبط مسيرتها، ويقوم معوجها، ويصلح فاسدها، ويهدي ضالها، ويساعد فقيرها، ويكفل يتيمها، ويؤسس التراحم بين أفراد المجتمع فيها، وتلك منة كبيرة وفضل من الله عظيم ورحمة منه على عباده، فهو الرحمن الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة، وبعث رسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة للناس جميعاً، ليكون رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] فأحاطت تلك الرحمة بكل جوانب الحياة فأصبحت سمة ملاصقة لكل التشريعات الإسلامية السامية وصفة ملازمة لها، والرحمة الربانية ظاهرة في الشريعة الإسلامية ولا يحس بها ويتذوق طعمها إلا المسلم الملتزم بتعاليم دينه، المتحلي بها باطناً وظاهراً، فتجعله - دائماً - في صفاء نفس وطهارة قلب ونقاء سريرة وشفافية روح، تدفعه دائماً إلى فعل الخيرات وعمل الصالحات وبذل الغالي والنفيس ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، ومن كانت هذه حاله وتلك صفته، متعلقاً دائماً بربه، ملتزماً بتعاليم دينه، فإن الرحمة لا تفارق قلبه، يحبها ويذها ويوصى بها تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: 17] لأنه يدرك بيقين إيمانه أنه برحمته بخلق الله، إنما يستجلب رحمة الله سبحانه وتعالى لنفسه تصديقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) [رواه البخاري] وقوله صلى الله عليه وسلم: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" [رواه الطبراني] وإدراكاً منه أيضاً بيقينه الإيماني وتصديقه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه إن لم يرحم خلق الله فسيحرم من رحمة الله بل قد يناله الشقاء في حياته الدنيا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تنزع الرحمة إلا من شقي" فضلاً عن أن المحصلة العظيمة والغاية السامية من تراحم أفراد المجتمع هي التماسك والترايط، مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [رواه مسلم]، كما أن هناك دافعاً آخر يؤازر دافع الرحمة ويدفع صاحبه إلى الإنفاق والبذل والعطاء، ألا وهو حرص المؤمن على كمال إيمانه بأن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، امتثالاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم

وسلم: "والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" [رواه مسلم].

وينتظم في عقد هذه المنظومة السامية من التشريعات الإلهية العظيمة في مجال الرحمة والرفق والتعاون والتكافل ما وجهنا إليه المولى جل شأنه، ورسوله صلى الله عليه وسلم في مجال الإنفاق والبدل والعطاء في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: 7] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبأ: 39] فالمتأمل والمتدبر في الحكم الجليلة والغايات النبيلة والأهداف السامية لتلك التشريعات الإسلامية العظيمة في الإنفاق في سبيل الله يجد أنها تسمو وترقى بمجال التكافل والترابط والتعاون بين بني الإنسان سمواً لم تصل إليه النظم الوضعية؛ لكونها تشريعات بشرية يعتربها الخطأ والقصور والنقصان ولأن التشريعات الإسلامية تقوم في معالجتها للقضايا على عنصرين مهمين: هما ثواب الدنيا بكافة أشكاله وأنواعه، وثواب الآخرة الذي ادخره الله لعباده ولا يعلم كنهه إلا هو سبحانه. ومن التشريعات الإسلامية في مجال الإنفاق في سبيل الله الأوقاف التي تعنى بسد حاجات الإنسان ومتطلباته الملحة، فأغنت النفس البشرية عن العوز والفقر والحاجة من خلال معالجة راقية كريمة جمعت بين سد الحاجة وحفظ الكرامة للإنسان الذي كرمه الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿ \* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: 70] وصانته تلك التشريعات العظيمة أيضاً عن أن يذل نفسه أو يمتنها من خلال ذل السؤال والطلب تحت ضغط الحاجة والعوز فصانته النفس الإنسانية الكريمة عن أن تذلل أو تخضع لغير الله سبحانه وتعالى من خلال أطر وتعليمات وتشريعات تلبى متطلبات النفس وحاجتها الضرورية التي هي من مقومات الحياة الكريمة التي امتن الله بها على عباده، وأسهمت في بناء المجتمع وتوفير الأمن له وسد الذرائع التي قد تسببها حاجة الإنسان وعوزه فيرتكب ما قد يرتكب من أخطاء في سبيل سد حاجته ومن يعول.

لهذا نجد أن التوجيهات الإسلامية في مجال الإنفاق في سبيل الله تعالج الفقر والحاجة من منطلقات معنوية أخروية ومنطلقات مادية يدركها ويحصل عليها المنفق في سبيل الله.

ولقد أرشدنا رسولنا الكريم ﷺ إلى نهج قويم يضمن تركية النفوس واستدامة الخير والمعرف في المجتمعات عن طريق أبواب كثيرة من أفضلها الوقف، تلك الصدقة الجارية التي هي من أفضل وجوه الإنفاق، وأعظمها أجراً، وأعملها فائدة، وأدومها نفعاً، وأبقاها أثراً، فهي تحافظ على تماسك المجتمع وتكافله، وتشيع المحبة والوئام في النفوس، وتدفع إلى المزيد من العمل الجاد المثمر، مما هياً للوقف مكانة عظيمة في شريعتنا السمحة، وجعله من أكد السنن، ومن أفضل أبواب الصدقة والإنفاق في سبيل الله، إذ يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" [رواه مسلم]؛ وجاءت هذه السنة النبوية المباركة توجيهاً للأمة للعمل بقول الحق - جل وعلا -: ﴿ ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ؕ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: 7] ووعد سبحانه فاعلي الخير بتوفية أعمالهم بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ؕ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ؕ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللّٰهِ ؕ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 272] وقوله جل وعلا: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ؕ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 92].

والمأمل في تاريخ الوقف في الإسلام، وأثره في حياة المسلمين يجد أنه قدّم حلولاً عظيمة الفائدة للمجتمعات الإسلامية في جميع جوانب الحياة: العلمية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها، فمن خلال الوقف ازدهرت الحضارة الإسلامية في جوانب كثيرة منها، فشيدت المستشفيات في حواضر العالم الإسلامي، ووفر العلاج للمرضى من الفقراء والمساكين وغيرهم، كما أنشئت الأربطة لإسكان الفقراء والمعوزين، وبنيت المساجد، وأقيمت حلقات تحفيظ القرآن الكريم، وانتشرت المكتبات الوقفية، إلى غير ذلك من الآثار العظيمة للوقف التي عم نفعها أوطان المسلمين.

من هنا جاءت قوة التأثيرات الإيجابية المثمرة للأوقاف الإسلامية في

المجتمعات الإسلامية، ودورها الرائد في إثراء الحضارة الإسلامية على مرّ العصور، وإسهاماتها الفاعلة في تنمية المجتمعات الإسلامية وبناء مؤسسات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتنمية وغيرها، وتفعيل دورها في المجتمع وفي إثراء مجالات البحث العلمي والتعليم والتأليف وإنشاء المكتبات الوقفية ورعاية الجوانب الصحية من وقاية وعلاج وأبحاث طبية وإقامة المستشفيات والمصحات والمدارس الطبية، ومحاربة الفقر من خلال تأهيل القادرين على العمل وسد حاجة غير القادرين، إلى غير ذلك من المجالات.

ففي الجوانب الاجتماعية والإنسانية والتنمية نجد أن الأوقاف الإسلامية قد أدت دوراً عظيماً ورائداً في هذا الجانب على مرّ العصور، انطلاقاً من كونها أجلاً وأصدق تعبير عن الصدقات الجارية الاختيارية التي تنبع من داخل النفس البشرية في حبها للبذل والعطاء وفعل الخيرات، دون دافع من إلزام أو قيود أو واجبات، إلا ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، وحب الخير وتحصيل المثوبة والأجر في الآخرة، وتكافل وتعاضد وتعاون أفراد المجتمع المسلم في الدنيا، فهي تسمو وترقى بسمو هذا القصد وتلك النية، بما يكفل للمجتمع المسلم التماسك والترابط والتراحم والتواؤم والتكافل تحقيقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۗ ﴾ [المائدة: 2] وبما يدفع ويحفز أهل الخير والعطاء والأغنياء والموسرين وأصحاب المروءة على البذل والإنفاق بسخاء على جميع مجالات التنمية والرعاية الاجتماعية في المجتمع المسلم، تلك المجالات التي شملت كل ما يحتاجه المجتمع المسلم، وأسهمت بقدر كبير في جوانب مهمة، من تنمية المجتمعات التي شملت كفالة الأيتام، ومساعدة الفقراء والمساكين، ورعاية الأرامل والمطلقات، والإنفاق على دور العلم ومدارس تحفيظ القرآن الكريم وغيرها من الجوانب الكثيرة للرعاية الاجتماعية، حتى وصلت إلى الدرجة التي وجد معها الباحثون والدارسون للتاريخ الإسلامي أن الأوقاف الإسلامية قد شملت وغطت في عصور الازدهار جميع جوانب التنمية في المجتمع، بحيث لا يكاد يوجد جانب من جوانب الرعاية الاجتماعية يحتاج إلى العون والرعاية إلا

وشملته تلك الأوقاف وأسهمت في كفالاته، مما مكن المجتمعات الإسلامية في تلك العصور من الرقي والتقدم والتطور والنماء بصورة لفتت انتباه من ينظر في تاريخ الإسلام والمسلمين، بل قد قال بعض الباحثين والمؤرخين: إن هناك تلازماً وثيقاً بين تطور وازدهار المجتمعات الإسلامية، وبين نمو وازدهار الأوقاف الإسلامية فيها، وهذا يبين المكانة التي احتلتها الأوقاف وإسهاماتها المباركة في التنمية الاجتماعية في عصور الإسلام الزاهرة.

وكذلك كان الأمر في الجوانب الصحية في المجتمع من وقاية وعلاج للمرضى والمعاقين وذوي الحاجات الخاصة وغيرها من المجالات، فقد أدرك المجتمع المسلم منذ أمد بعيد أهمية الجوانب الصحية في حياة الأفراد، باعتبارهم عماد وقوام التنمية في المجتمعات، وأن العقل السليم في الجسم السليم وأن قوة المجتمع المسلم تتكون من مجموع قوى أفرادها، فإن كانوا أصحاباً كان هذا المجتمع قوياً و متماسكاً ومنتجاً، وإن كان أفراد المجتمع ضعفاءً صحياً وجسدياً ونفسياً كان المجتمع ضعيفاً، انطلاقاً من أن الصحة العامة للأفراد عامل رئيس لتنمية المجتمع، لأن أفراد المجتمع هم الركيزة الأساس لكل برامج التنمية فيه، من هنا جاء اهتمام المجتمعات الإسلامية على مر العصور بصحة أفرادها ومواطنيها بدرجة لا تقل عن اهتمامها بالجوانب الاجتماعية والتنموية التي سبق الإشارة إليها.

ولقد أدى الوقف الإسلامي في هذا المجال دوراً إنسانياً رئيساً ومميزاً في جميع المجالات: الإنسانية، والاجتماعية، والتنموية، والصحية، والمجالات التعليمية، وفي مجال الدعوة إلى الله، وغيرها من المجالات، مما جعل منه أنموذجاً رائداً يحتذى به في كل وقت وفي كل مكان، ولن تتأني العودة بالأوقاف الإسلامية إلى ما كانت عليه في عصور الإسلام الزاهرة، إلا بعودة الروح إلى هذه السنة النبوية المباركة، وتظافر الجهود للتوعية بمكانة الوقف والتوكيد على أهميته وضرورته لتكافل المجتمع وتنميته، واستنهاض همم القادرين على العطاء في هذا المجال المبارك، وطرح صيغ جديدة للوقف تتناسب مع متطلبات العصر.